اللغة المؤسس الحقيقي لقيم الهوية والانتماء

أ.د أحمد عفيفي

سأنطلق في هذا البحث من قناعة تامة ومبررة- على كل المستويات – بأن اللغة رمز لهوية الإنسان وعنوان لها ، وأنه لا كينونة للإنسان ولا وجود له دون هوية يلوذ بها، تحتضنه وتحميه، يعتنقها فتؤسس له حياته ، وترسم له طريقه، وتنظم له فكره، وتجعله جزءا فاعلا من كيان مجتمعي يعيش فيه ، ليتأكد له أن الشعور بالهوية والانتماء والولاء إنما، هو مصدر اعتزاز وفخر وإحساس بالكبرياء والعزة والكرامة والثقة بالنفس، وهو مصدر إحساس بالقوة والمنعة، فالإنسان يحتمي بهويته بكل مقوماتها وأسسها، وعلى رأس هذه المقومات اللغة فهو يحتمي بلغته ؛لأنها جزء مهم من كينونته ووجوده، فلغتي هي مسكني، وهي موطني ومستقري، كما يقول الفيلسوف الألماني هيدجر .

ولاشك أن كل مقوم من مقومات هوية الإنسان يمثل قيمة مهمة في صنع تلك الهوية ،وتجسيدها في صورة متكاملة، سواء كان المقوم لغويا أو اجتماعيا أو دينيا أو سياسيا أو اقتصاديا أو جغرافيا أو تاريخيا ،فكل مقوم يعدّ لبنة مُهمة في صرح الهوية الشامخ، إلا أن المقوم اللغوي يعدّ أكثر المقومات أهمية، وهو اللبنة الأولى في ترسيخ مفهومها، ومن هنا يمكن القول بإمكانية الجمع في هوية واحدة بين الأقطاب المختلفة دينيا، كالمسلم والمسيحي ،أو مذهبيا كالشيعي والسني، وكذلك يمكن الجمع بين أصحاب النزعات المختلفة اقتصاديا أو اجتماعيا أو تاريخياً، ولكن من الصعب الجمع في هوية واحدة بين شعب يتكلم العربية وآخر يتكلم الإنجليزية أو غيرها، فلا يمكن لناطق بالعربية ،وتكون العربية لغته الأم ويعيش في بيئته أن يكون إنجليزيا أو أمريكيا، ولا يمكن لناطق بالإنجليزية وتكون الإنجليزية لغته الأم أن يكون عربيا، فهوية الإنسان تصنعها اللغة الأم أو لغة الأم أو لغة الأمة ، على حين يمكن أن يكون المسلم أو المسيحي عربيا أوإنجليزيا أو من أى جنسية أخرى .

إن اللغة هي الهوية الكبرى التي تنضوي تحتها تلك الهويات الفرعية الأخرى من دين أو عشيرة أو جماعة ما، فتحديد الهوية "يعزز بواسطة اسم اللغة التي تفي بالوظيفة الرمزية للتمثيل على المستويين الاجتماعي والفردي، إذ لا يمثل الانتساب إلى العشيرة أو الجماعة فقط، وإنما يمثل كل أنواع الولاء: إلى الدين وإلى الزعيم السياسي وإلى الأيديولوجيا" [1] .

من هنا كانت "اللغة علم الهويات ورمز الذات القومية في إعلان وجود ينكره آخر" كما يشير إلى ذلك د. نهاد الموسى[2] ، فاللغة إذن عنوان على كل فرد ، ترسم هويته الفكرية وتحدد سلوكه ومعتقداته ومسلماته التي يعتنقها، ولهذا تعد الهوية اللغوية الموجّه الرئيسي للإنسان، كما تعدّ العلاقة بين اللغة والهوية علاقة كينونة ووجود . تقول د. لطيفة

النجار: "لاشك أن العلاقة بين اللغة والهوية علاقة وجود فكلنا يعرف– كما يؤكد المختصون– أن اللغة أسلوب حياة، وهي جزء أساسي من كينونتنا ، ولها أثر كبير في الفكر والشعور ، فهي لا تشكل معالم هويتنا فقط، ولكنها تحدد شروط القبول أو عدم القبول، ومعايير الانتماء أو عدم الانتماء. يقول كاستل ، وهو أحد العلماء الباحثين المعروفين في قضايا الهوية والعوامل المؤثرة في تشكيلها، إن اللغة التعبير المباشر عن الحضارة – تصبح خندق المقاومة،والحصن الأخير لحماية الذات، والملاذ الأقوى للهوية والتراث"[3].

ومن هنا نقول إذا وجدت لغة الإنسان وجدت هويته ،وإذا ضاعت لغته ضاعت هويته، فلا هوية بدون لغة ولا وجود للإنسان بدون لغة، تصنع فكره وثقافته وتشكل ذاته ، إن اللغة تصوغ الآخر في أذهاننا المختزلة، فهي الوعاء الحاضن لمنجزات الحضارة، وتعد الشاهد الأمين على تاريخ الأمة ومصدر تطورها وعنوان وحدتها ورمز هويتها، فاللغة إذن معلم أساسي من معالم انتمائنا إلى متحد لغوي واجتماعي [4].

والملاحظ في تلك المقدمة السابقة ارتباط الهوية بالانتماء والولاء ارتباطا وثيقا ، ولهذا فمن الواجب تحديد مفاهيم هذه المصطلحات التي سترد كثيراً في هذا البحث.

تأسيس المفاهيم

نتناول في هذا الجزء تحديداً دلاليا لمصطلحات : الهوية – الانتماء– الولاء، حيث تمثل هذه المصطلحات حجر الزاوية في هذا البحث.

الـهويــة:

مصطلح الهوية هو أحد المصادر الصناعية ،مثل : الوطنية والقومية، وهي تلك المصادر التي تتكون من الكلمات الجامدة ،وبعدها ياء مشددة ثم تاء تأنيث مربوطة، فإذا ما جئنا للفظ الهوية سنجده مكونا مما يلي: هو: ضمير المفرد المذكر الغائب المقترن بأل التعريفية، ثم الياء المشددة في آخر الضمير، تتلوها تاء التأنيث المربوطة، لتصير الكلمة في نهاية الأمر (الهوية) ،وهي تنطوي على "تقابل ثنائي يفترق فيه مبناها ومعناها، فمبناها مبني المصدر الصناعي من (هو) فهي بذلك معادل: ما هو (أو كينونة الآخر) أما معناها فهو: ما أنا (أو كينونة الذات) [5] أما في الأصل اللاتيني فيعني الشيء نفسه أو الشيء الذي هو ما هو عليه، على نحو يجعله مباينا لما يمكن أن يكون عليه شيء آخر، وهو ترجمة الكلمة IDENTITY في الإنجليزية[6]. ويختلف تعريفها باختلاف زاوية تناول الباحثين لها اجتماعيا أو اقتصاديا أو

نفسيا أو ثقافيا أو فلسفيا ،مما جعل مفهومها غامضا غير محدد المعالم ، إذا أخذنا في الاعتبار مجموع هذه الزوايا التي يحاول الباحثون تحديد المفهوم من خلالها، ولعل ذلك الغموض الكامن في المصطلح يؤكد ضرورة البحث عنه والإمساك بدلالته. ماذا تعني هوية الإنسان؟ وماذا تعني هوية الأمة؟ وماذا يقصد بها في هذا الإطار الذي نبحث فيه ؟، ومهما اختلفت تعريفاتها أو ندّت ،فإنها تعني وعي الإنسان بذاته وإحساسه ومشاعره وطريقة تفكيره ،ومدى انتمائه إلى دين أو لغة أو أمة أو قومية أو جماعة أو طائفة أو مذهب ، لتحدد للإنسان ملامح الانتماء والولاء ، لما يؤمن به من فكر يحدد سلوكه داخل المجتمع، ومن هذه الزاوية فهي مفهوم عام ومطلق يعني الماهية والحقيقة ، كما يعني الانتماء والانخراط والتشابه والتساوق والتساوي، فهو باختصار مفهوم يعني أن الشيء هو ذاته ونفسه وحقيقته.

لن نقف كثيراً أمام المصطلح تاريخيا، لكن من المؤكد أنه ورد في التراث العربي والغربي بدلالات متفاوتة أحيانا، ومتساوقة أحياناً أخرى، ففي التراث ورد المصطلح عند القاهر الجرجاني الذي عرّفه بأنه : الأمر المتعقل من حيث امتيازه عن الاعتبار، أما ابن رشد فقد أشار إلى أنه جاء بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود، وعند الفارابي هوية الشيء عينه وتشخيصه وخصوصية وجوده المنفرد الذي لا يقع فيه إشراك .

أما في الغرب فقد استخدم المصطلح لأول مرة عند "جورج جروديك" كمصطلح من مصطلحات التحليل النفسي ،ليدل على أمر غير شخصي في الطبيعة الإنسانية، ويقوم مبدأ "الهوية" على أن الموجود هو ذاته، أو هو ما هو عليه، كما أن الهوية هي أيضا: عبارة عن التشخيص، وقد تطلق على الوجود وعلى الماهية مع التشخيص[7].

وإن كان تراث أرسطو لم يخل من وجود اللفظ الذي تطرق إليه في منطقه الصوري، فالمنطق الصوري لا يطيع إلا هويته الخالصة وتطابقه مع نفسه[8] أما عن تعريفات الهوية من الزوايا التي ينظر إليها الباحثون فهي كثيرة، فمن المنظور الاجتماعي يعرفها عبد العزيز البهواش بأنها هي الشعور بالانتماء إلى أمة ما والاندماج في تفاصيل طابعها القومي وفي الحياة اليومية للفرد وللجماعة[9].

وقد ركزت بعض الدراسات على مفهوم الهوية من منظور اجتماعي أيضا، حيث ركزت هذه الدراسات على أن لمفهوم الهوية معنيين: فقد تعني الهوية أنها انتماء لثقافة أو دين أو أسرة أو وطن أو مركز اجتماعي معين أو حضارة معينة، وقد تعني الولاء بمعنى إدراك الفرد لنفسه"[10].

على حين أن تعريفها من المنظور الثقافي– كما أشار عبد المجيد أحمد عامر بأنها "مجموعة من السمات الثقافية التي تتصف بها جماعة من الناس في فترة زمنية معينة ،والتي تولد الإحساس لدى الأفراد بالانتماء لشعب معين ،والارتباط بوطن معين والتعبير عن مشاعر الإعزاز والفخار بالشعب الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد"[11].

أما عن تعريفها من منظور نفسي ، فمن وجهة نظر" أريك إريكسون " الذي تحدث عن هوية الأنا معرفا لها بأنها : "ذلك الشعور بالهوية الذي يهيئ القدرة على تجربة ذات المرء كشيء له استمراريته ، وكونه هو هو نفسي الشيء، ثم التصرف تبعا لذلك"[12]. وبعضهم نظر إليها نظرة شمولية من أكثر من منظور على أنها "مفهوم اجتماعي نفسي يشير إلى كيفية إدراك شعب ما لذاته وكيفية تمايزه عن الآخرين، وهي تستند إلى مسلمات ثقافية عامة مرتبطة تاريخيا بقيمة اجتماعية وسياسية اقتصادية للمجتمع"[13].

أما تعريفها من منظور أنثروبولوجي ، فيرى البعض أن "الهوية هي الانتماء إلى أمة/وطن مجموعة من العقائد، وتشكل دوائر انتمائية الفرد حسب الفكر والعقيدة والأمة واللغة"[14]، ويرى" جورج دي فو" الذي حددها بالهوية العرقية، وهي "إحساس بالانتماء الاجتماعي، وقد تعني الولاء الأخير لها، حيث تتحدد عضوية الفرد إلى جماعة معينة على أساس اللغة الواحدة أو العرق أو الأوضاع الاقتصادية أو الثقافية أو الإقليم المشترك"[15].

وقد توزع مفهومها واختلف من منظورات سياسية واقتصادية وقومية.. الخ واختلف اختلافا بينا ،يوسع مفهومها بحسب كل منظور ، مما لا مجال لعرضه هنا.

بعد هذا العرض السريع لمجموعة من التعريفات ، أرى أن الهوية في رأيى هي: اليقين الذاتي الذي يملأ روح الإنسان ،ويؤسس لديه الإحساس بالانتماء والولاء لدين أو لغة أو ثقافة أو مذهب أو فكر لجماعة أو أمة، فيخلق لديه الشعور الجمعي المشترك مع هذه الجماعة أو الأمة ، لتربطهم تلك الهوية بمصير واحد، لتتجسد لدى هذه المجموعة روح الاختلاف والتمايز عن غيرهم.

ومن هنا فإن هوية الفرد هي التي تؤسس هوية الجماعة التي ينتمي إليها، وهوية الجماعة هي التي تؤسس لمجموعة أكبر داخل مجتمع ما، لنكون أمام هوية الدولة ، ثم يجتمع كل ذلك ليؤسس لهوية الأمة، وتنطلق تلك الهوية من إيمان الفرد نظراً وتطبيقا باستخدام لغة مشتركة ،يتحدث بها كل أفراد المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء المستخدمون لها. هذا مفهوم الهوية في مستواها العام، وأستطيع أن أطلق عليها "الهوية الأم " أو "الهوية الكبرى " في مقابل الهويات الفردية للأشخاص ،فإذا نظرنا إلى الإنسان العربي من منظور إسلامي ،فإن الفرد لابد أن يكون متحدثا بلغة عربية ،ويؤمن بالدين الإسلامي. فيكون عربيا مسلماً ،وإذا نظرنا إلى العربي من منظور مسيحي ، فلابد أن يكون متحدثا باللغة العربية أولا ،ويؤمن بالمسيحية ثانيا، وهكذا تكون اللغة هي القاسم المشترك بين الهويات الفرعية ، ومن هنا فإن كل من نشأ على أرض عربية ، وتربى فيها وتحدث بلغتها العربية فإنه يكون عربيا ،على مستوى الفرد والدولة والأمة، بصرف النظر عن كونه مسلماً أو مسيحياً أو شيعياً أو سنياً.. إلخ، فإذا ما كان مؤمنا بعقيدة أو مذهب أو أفكار أيديولوجية أخرى ،فإنه يمكن

الانتساب إليها مع الاحتفاظ بكينونته العربية الأصيلة. ومن هنا أقول عربي مسلم ،أو أمريكي مسلم، أو كندي مسلم ،أو عربي مسيحي ،أو أمريكي مسيحي ،أو كندي مسيحي .. إلخ.

وبتأمل ما سبق يلاحظ ما يلي:

1- أن الهوية تصنعها الوراثة في غالب الأحوال ، فالفرد يولد وتفرض عليه لغته الأم ، ومن هنا فلا اختيار للشخص في وضع اللبنة الأولى من صرح الهوية ثم يتبع ذلك الهوية الدينية والعادات والتقاليد وثقافة المجتمع.. إلخ.
2- ارتباط الهوية دائما بالانتماء والولاء ، وقد ظهر ذلك في تعريفات كثيرة ،ومن منظورات متنوعة ،ومن هنا يجب أن نتناول مفهوم الانتماء والولاء .

مفهوم الانتماء والولاء

الانتماء سمة فطرية في الإنسان، وهو لفظ محبب إلى نفسي ، لما فيه من إحساس صادق يملأ النفس رضا والذات قناعة، والانتماء إلى جماعة معينة أو فكر معين مع مجموعة أخرى من البشر يُشعر الإنسان بالأمن والطمأنينة والأمان النفسي، لأن مجموعة الانتماءات التي يؤمن بها الإنسان تجعله ضمن مجموعة يتآلف معها،ويترابط مع قضاياها وأفكارها، ويبقى أن تستمد الذات تفردها وتميزها من تلك الانتماءات التي يعتنقها ،ويحيا من خلالها كاسمه وسكنه وجنسه وأفكاره وخصوصياته الأخرى، وقبل ذلك كله لغته التي يتحدث بها، فالعربي لا يكون عربيا ولا ينتمي للعروبة إلا بلغته، وتبرز خصوصية المنتمي بإرادته التي تسوقه لفكرة الانتماء إلى مذهب أو عقيدة أو فكرة ما، ومن هنا إذا كان المنتمي صادقا محبا ومخلصا لما آمن به ،فهو إذن قد دخل إلى مرحلة الولاء ، ولهذا قال البعض إن الانتماء انتساب الفرد لجماعة معينة ، والولاء لقضاياها والتفاني في خدمتها [16].

ويبدأ انتماء الفرد من استخدام لغته التي ورثها عن أمه، وانتسب من خلالها للجماعة ،فيقال عربي أو فرنسي أو إيطالي نسبة إلى اللغة ،ثم يحقق الولاء لها بالدفاع عن قضاياها وأفكارها، فقد يكون الفرد عضواً في جماعة أو فردا في فئة ولا يتحقق له صفة الولاء ؛لأنه ليس مخلصا لها فكراً وسلوكا، ومن هنا "فالانتماء في جوهره روح وسلوك وعاطفة تدفع الفرد للقيام بأنماط سلوكية معينة، يجسد من خلالها انتماءه للجماعة ،وإخلاصه لها واقتناع عقلي (هكذا قال) بفكرة كلية عامة تحكم كل أفكاره الجزئية الأخرى"[17].

ولهذا كان الانتماء اختياراً حراً من جانب الفرد، باستثناء الجانب اللغوي الذي ورثه الفرد مع مولده، وعادة ما يكون الانتماء اللغوي مبكراً ؛لأن اللغة التي استخدمها الفرد هي أول ما أطلق شرارة العقل، حتى وإن تعلم الإنسان لغات أخرى

فتظل اللغة الأولى لغة الأم تشعل عقله دائما ، وعليه أن يختار ما يختاره بعد تفهمه للأمور وإعمال عقله فيما يقبل عليه. والانتماء من الأسباب المهمة في إيجاد ترابط بين "أفراد الجماعة وتوحدهم وتميزهم عن غيرهم من أفراد الجماعات الأخرى، إذ يتضمن أولا الفرد الساعي لتحقيق ذاته ،وثانيا الجماعة التي ينتمي إليها عضوياً وفكرياً ،وثالثا القضية التي يلتزم بها، ثم تأتي روح الانتماء لتربط الأطراف الثلاثة، ويفقد الانتماء قيمته إذا ما انفرطت هذه العلاقة بين أطرافه الثلاثة، أو فشل في تحقيق الذات الفردية أو خانت الجماعة القضية المعبرة عن انتمائهم"[18].

وإذا كان الانتماء يجسد ظاهرة الانتساب إلى حقيقة ما ،أو الإيمان بمجموعة من الأفكار والمبادئ ،فإن الولاء هو : "التفاني الإرادي العملي المستمر من قبل شخص ما تجاه قضية معينة، يعرف منها ما ينبغي أن يكون ،وما ينبغي أن يقوم به من الأفعال"[19].

والملاحظ ارتباط الانتماء بالولاء ارتباطا جوهريا ، وربما كان الانتماء مرحلة من مراحل الولاء ،فإذا كان الانتماء انتسابا وانضماماً إلى جماعة معينة ،فإن الولاء يعني التفاني في خدمة قضية ما، لكن الرابط بينهما لابد أن يكون الإخلاص، في الانضمام والتفاني في الخدمة ،ومن هنا يأتي التمايز بينهما ، وقد قال البعض بأن "الانتماء يكون لجماعة وعناصر متشابهة في التكوين العضوي والنفسي، في حين أن الولاء يكون لقضية معينة أو لمجموعة من القضايا يربطها نسق واحد، فيحمل لفظ الانتماء دلالة حسية واقعية ،فالجماعة تتجسد في مكان وزمان معينين، ويحمل لفظ الولاء دلالة فكرية أو مثالية ، فيكون لفكرة أو قضية تعبر عن مثل أعلى[20].

ولابد أن يكون الانتماء حاملا روح الانتساب للجماعة ،والإيمان بقضاياها والإخلاص لها، ومن هنا يكون أشمل من الولاء الذي يتركز في الإيمان بالقضايا أو الأفكار فقط، فيصير كل انتماء ولاء ،وليس كل ولاء انتماء ، لكن الذي لابد أن نؤكد عليه هنا أن الانتماء والولاء – أيا كانت دلالتهما– اتفاقا أو اختلافاً اتساعاً في المعنى أو تضييقا، لابد أن يشملا الإيمان باللغة والانتساب إليها، إذ لا يوجد انتماء إلى جماعة بدون لغة مشتركة ولا يوجد ولاء لقضايا تلك الجماعة بدون تلك اللغة ، وهذا يؤكد أن اللغة عامل مشترك بين الانتماء والولاء ، كما أنها رمز الهوية، مع ما يندرج تحتها من الانتماء والولاء ، كما يؤكد أن اللغة هي العامل المشترك بين كل هذه المصطلحات بكل دلالاتها أيا كانت.

اللغة وصناعة قيم الهوية والانتماء

ينبغي أن نعترف أن اللغة من أهم العوامل التي ترسم ملامح الشخصية الإنسانية، وهي أساس للقومية، وأن اللغة الأم هي صاحبة السيادة عند الأمم الواعية، فاللغة من داخلها تصنع وعيا قوميا خاصا لدى متحدثيها، يخترق هذا الوعي –

بشكل فطري– كل الحجب للوصول إلى قيم الانتماء الراسخ في الوجدان البشري، ليصنع نوعا من التوحد في التفكير والثقافة المرتبطة بالسلوك المنظم لتصرفات الإنسان. فاللغة انتماء، والانتماء هوية للأمة، والهوية قيمة، والقيمة تتجسد في حقيقة الإنسان الفطرية التي تولد معه، وهي أيضا ضرورة اجتماعية تتجسد في حياته.

واللغة العربية رمز للهوية ، وهي من أكثر اللغات تجسيداً لقيمها المتجذرة في نفس الإنسان العربي ، لوجود عوامل خارجية وأخرى داخلية . وينبغي أيضا أن يكون لدينا يقين بأن الانتماء التزام والالتزام مسؤولية، والانتماء اعتزاز، والاعتزاز أصالة، والانتماء ارتباط بالتراث والثقافة، والارتباط يؤصل لمصير مشترك ينبغي أن يؤمن به العربي ويجسده في سلوكه، وكذلك الانتماء لغة، واللغة حوار وتواصل بين الأجيال، والتواصل حياة للأمة وأبنائها.

من هنا جاءت أهمية دراسة علاقة اللغة بشكل عام – والعربية بشكل خاص بالهوية والانتماء والولاء، فكل الأمم الواعية تعتصم بلغتها حماية لهويتها ووجودها وثقافتها وتاريخها؛ لتضمن لنفسها البقاء والنمو والتطور، ولا أظن أمة من الأمم تهمل لغتها وتتقاعس عن خدمتها إلا وأصابها الوهن والضعف، فمن خلال قوة اللغة تعمل الشعوب على الوصول إلى وجدان الآخر وعقله خدمة لمصالحها، لهذا أصبحت الهوية صناعة مهمة عند بعض الشعوب الحديثة المفتقرة إلى تجسيد فكرة الانتماء لتوحد أفكارها (أمريكا نموذج مهم لهذه الصناعة).

وإذا كان أمر اللغة مهما إلى هذا الحد في صنع الهوية ،فلا نندهش من تلك الأسئلة الخطيرة التي طرحها "جاك دريدا " في كتابه: "أحادية الآخر اللغوية" والتي يمكن أن نسميها بأنها الفكرة المحورية لهذا الكتاب، تلك الأسئلة هي: هل يمكن للغة أن تكون أساساً للهوية، ومن ثم أساساً للمواطنة، وهل في مقدور اللغة لحالها أن تشكل ماهية الهوية والمواطنة على حد سواء[21].

إن هذه الأسئلة المهمة جعلت مترجم الكتاب يعلق قائلاً: "لاشك أن دريدا، وعبر تدويرات لغوية معقدة ، وأساليب تعود بنا إلى تقنيات التفكيك الكتابية التي مارسها في طقوسها القصوى في كتاباته الأولى ،استطاع أن يتخلص من مجمل الأسئلة المقلقة التي فتح صندوقها هو بذاته وأهمها على الإطلاق تلك المتعلقة بمسألة انتمائه الهوياتي المتأرجح بين أرض اسمها الجزائر ، ودولة اسمها فرنسا وطائفة اسمها الطائفة اليهودية. بمعنى آخر: هل الانتماء الحقيقي يكون للأرض، أم للدولة، أم للديانة، أم أنه لا هذا ولا ذاك ؛ لأن الانتماء الحقيقي والأصيل يكون للغة التي نتحدث بها ونبدع بها وفيها"[22].

إن دريدا يطرح أسئلة تصل إلى حد أبعد مما نطرحه هنا، فإذا كنا : نتساءل نحن: هل اللغة هي المؤسس الأول لقيم الهوية والانتماء ؟ ثم تأتي بعدها بقية الهويات لتشارك في صنع الهوية الكبرى ، فإنه يذهب إلى السؤال: هل يمكن أن

تكون اللغة وحدها هي المقياس الوحيد للهوية والمواطنة؟ وأن الانتماء الحقيقي يكون فقط من خلال اللغة؟ إنه لا يسأل تلك الأسئلة إلا إذا كان مشدوداً للإجابة عنها بشكل يحدد رأيه النهائي ، تلك الإجابة التي يشعر قارئ الكتاب بأنه لابد أن يتوقعها في نهاية الأمر، وتلك هي مقولته الأخيرة عن اللغة الفرنسية التي توضح الإجابة عما طرحه من أسئلة ، يقول جاك دريدا :"أنا أشعر بالضياع خارج اللغة الفرنسية. في حين أن اللغات الأخرى كتلك التي أستطيع أن أقرأها ، ولكن بصعوبة بالغة، أو تلك التي أحاول فك رموزها، أو أن أتكلمها أحياناً، فإنها لغات لا أستطيع أن أسكنها أبداً . ذلك أن مقر(السكنى) يعني بالنسبة لي البداية الحقيقية لإمكانية القول، وسأبقى كذلك . إنني ، وأنا خارج اللغة الفرنسية، لا أشعر فحسب بأنني تائه تماماً، خائر القوى ومذموم، ولكن أشعر أيضا بأنني أعمل على تشريف أو خدمة كل الألسن المتكلمة، وبكلمة واحدة. أنا أكتب بطريقة (أجمل) وأنا أشحذ همة المقاومة الموجودة في فرنسيتي ، و(الصفاء) الذي يطبعها، فرنسيتي التي أتكلمها بصوت عال"[23] .لقد حسم دريدا الأمر الذي كان يقلقه ويصيبه بالحيرة والألم، لكنه انتصر للغة التي رضعها وتعلمها وهو صغير ، تلك اللغة التي – من المفترض– ألا تكون لغته الأم؛ لأن لغته الأم الأصلية كان يفترض أن تكون العبرية، باعتباره يهوديا، أو اللغة العربية، باعتباره من أصول جزائرية، إلا أنه لم يتعلم العربية باعتبار أصوله أو العبرية باعتبار ما يعتنقه من ديانة، لكنه تعلم الفرنسية التي عاشت معه فأصبحت (السكن الحقيقي له) ، فإذا خرج منها وجد نفسه– كما قال– مذموما تائها، خائر القوى، بل لو تكلم بغيرها ، فإنه يعمل على تشريف اللغات الأخرى وخدمتها، ويبدو أنه لو فعل ذلك وأعطى قيمة وشرفاً للغات الأخرى ، فإنه سيفقد هويته وانتماءه،وربما – من وجهة نظره –يكون خائنا للغته وهويته، ويبدو أن جاك دريدا استدرك الأمر في تحدثه بالفرنسية التي لا تعدّ لغته الأصلية فقال: "في البداية أود تنبيهك إلى أنني لم أتحدث بعد عما تسميه (لغة أجنبية) فعندما أقول بأن اللغة الوحيدة التي أتكلمها ليست لغتي، فإن ذلك لا يفضي بداهة إلى القول بأنها تعدّ لغة أجنبية بالنسبة لي، فهناك بون شاسع بين المعنيين"[24] .

وهنا ندرك أن الهوية ترتبط باللغة التي تعلمها وهو طفل ، كما ارتبطت بالبيئة الجغرافية التي عاش فيها طوال حياته؛ تلك اللغة التي شكلت ذاته ويقينه وثقافته فسكن فيها، إنه ارتبط بفرنسا جغرافيا على حساب الجزائر (المفترض أنها موطنه الأصلي) فتعلم الفرنسية التي كانت بديلا للعربية التي لم يتعلمها، فانتمى إليها وصارت مجسدة لهويته ، وعلى هذا نقول إن لغة الأم التي يتعلمها الإنسان في بيئة قضى فيها عمره تصنع هويته ، حتى ولو كان مغترباً طوال حياته ،كما هو الحال مع جاك دريدا .

مستويات الهوية

تتعدد مستويات الهوية وتتنوع تنوعاً ملحوظاً، إلا أن المشترك الواضح في صور هذا التنوع والاختلاف هو ثبات اللغة في كل المستويات التي تحدد طبيعة هذه الهوية، و الملاحظ أيضا أن هذا التقسيم اعتباري ، ولا يمكن الفصل بين هذه المستويات فصلا حاداً وحاسماً ، فالتداخل أيضا سمة أساسية في التعامل مع هذا التقسيم، وتظهر هذه المستويات فيما يلي:

1- المستوي الأولى: هوية فردية

تتحدد من خلال هذا المستوى الهوية الشخصية للفرد، فيظهر تمايزه بين الأفراد باسم خاص به يحدده ويميزه عن غيره من أسماء الأشخاص الآخرين، ومن ملامح هذا المستوى أيضا ، ما يمكن أن يظهر في ثقافة الإنسان الخاصة وإيمانه ببعض الأيديولوجيات والمذاهب والأفكار ، مما يشكل ذات الفرد وما هيته وتوجهاته على المستوى الفردي، ويحدد آراءه الشخصية في كثير من الأشياء، مما يمكن أن يمثل اختلافا عن المحيطين به.

2- المستوى الثاني : هوية جماعية

يمثل هذا المستوى من الهويات هوية الجماعة الصغيرة التي تحيط بالفرد ، ربما هوية قبيلته أو قريته أو مدينته، وتختلف أيضا الهوية في هذه الحالة عن هوية الجماعات الأخرى داخل الدولة الواحدة ، أو ربما داخل الإقليم أو المدينة، وهذه الهوية في مستواها تكون أشمل من المستوى الأول ، فيمكن أن نجد تلك المجموعة تتكلم بلغة واحدة ،وتدين بدين واحد، وتنتمي إلى مذهب واحد، وفي كل هذا تمايز واختلاف عن بقية الجماعات الأخرى داخل الدولة .

3-المستوى الثالث : هوية الدولة وهذا المستوى أعلى من سابقه فهو يضم جماعات متفقة لغويا ، وربما تختلف دينا أو مذهبا ، لكنها تقع كلها في إطار واحد ويقع هؤلاء الأفراد تحت مظلة واحدة من ناحية الجنسية بالرغم من التمايز الفردي أو الجماعي بينهم ، فنقول مصري ، لبناني ، إماراتي ..... الخ

3- المستوى الرابع: الهوية القومية

وهي تلك الهوية في مستواها الأعلى ،الذي يشمل جميع الأفراد داخل الوطن الواحد والقوميات المماثلة التي تتماثل فيها هويات وتتطابق داخل محيط جغرافي يضيق أو يتسع ،حسب ما يقع تحت هذا المستوى ، مما يشعر به الأفراد من انتماء قومي لكل ما يضمه هذا المحيط الجغرافي من دين أو ثقافة أو مذهب أو فكر ما، لكن تحت إطار لغة واحدة يستخدمها الجميع، ومن هنا تأتي القومية العربية أو القومية الأوروبية..... الخ وهذه المستويات الأربعة تتساوى أو تتقاطع

في إطار من الاتفاق أو الاختلاف – باستثناء اللغة المتفق عليها من الجميع– فهي التي تميز الوطن على بقية الأوطان ، كما تميز القومية عن القوميات الأخرى، فتتميز ديانة الشخص عن الديانات الأخرى لنجد المسلم أو المسيحي أوالبوذي. أواليهودي تحت سقف لغة واحدة مشتركة ؛ والسبب كما يقول عيسى برهومة "أن هذه الهويات الفردية أو الجماعية أو الوطنية القومية تنتمي إلى بعضها ،وصلتها قوية ومنسجمة، وما يربط هذه الأشلاء– إن صح التعبير– هي اللغة التي تزيد أواصر القربى ،وهي التي نشترك بها، فالهوية اللغوية ترتبط بالتفاعل اللغوي بين الناس، ومن خلالها، تفهم علاقة الناس فيما بينهم"[25].

والمتأمل لمستويات الهوية يرى أن الهوية الأساسية– وهي هوية الفرد– ترتبط ارتباطاً وثيقا ببقية مستويات الهوية الأخرى، فتتداخل مستويات الهوية وتتناغم في توجه واحد ،لتبدو أنها هوية واحدة ،عندما تنسجم كل المستويات من خلال لغة واحدة تضم هذه المستويات في إطار واحد، من خلال تلك اللغة التي تزيد بين أواصر القربى فنتواصل من خلالها ،وتتفاهم ،ونتفاعل ،ليصير الهدف مشتركاً إلى حد أن يكون المصير واحدا.

فاللغة هي التي تؤسس لقيم الهوية ،ثم تجمع بين مستوياتها الفرعية المتنوعة دينيا وثقافيا واجتماعيا وسياسيا، فنجد المسيحي متواصلا مع المسلم، وهما مختلفان من ناحية الهوية الفردية، لكن اللغة تصنع تواصلا حميما بينهما، وكذلك تجمع بين المنتمين لمذاهب وأحزاب مختلفة، بل شديدة الاختلاف أحياناً، وهذا هو الذي يميز هوية الفرد عن غيره ثقافة وتوجّها، وكما أن اللغة تصنع تواصلاً بين فئات الشعب المختلفة من غني وفقير ، وعالم وجاهل ، وعظيم وحقير.. الخ ،فإنها تصنع ذلك الشيء نفسه بين حاملي الهويات الفردية الذين هم أفراد من هذا الشعب المندرج تحت الهوية الكبرى، أو الهوية القومية الوطنية ،فالهوية الفردية – وهي شخصية– مرتبطة بمفهوم الذات ومكنوناتها العميقة المرتبطة بالشخص نفسه، " كما تعدّ الهوية الفردية من جانبها شرطاً مسبقا لبناء هويات جماعية، أي للتراص الداخلي للمجموعات، فالناس لا يستطيعون النجاة إلا عند العيش داخل المجموعات"[26].

وكما أكدنا سابقا أن هوية الفرد تبدأ من اللغة ، ثم تنطلق إلى الجماعة، ثم إلى الدولة، ثم إلى الهوية القومية، كل هذا داخل إطار من التحاور من خلال لغة واحدة هي اللغة الأم.

الروابط التي تصنعها اللغة

تصنع اللغة المشتركة التي تتحدث بها الجماعة عددا من الروابط بين أفراد هذه الجماعة، وتتمثل فيما يلي:

1- الرابط الفكري، ويتمثل في القضايا الثقافية المشتركة ، فاللغة هي الوسيلة الوحيدة التي تحمل المعاني والدلالات لكل الأشياء ، من أحداث وحقائق ومفاهيم وتاريخ ، وأنشطة الإنسان من إبداع إنساني وتجارب حضارية، وهي القادرة على تصوير كل الأنشطة الإنسانية، قولا وفعلا ، وذلك يمثل الحالة الفكرية والثقافية للأمة، وتلك الحالة التي تربط بين أفراد المجتمع الواحد.

2- الرابط الشعوري، ويمثل هذا الرابط قيمة مهمة في تجسيد البعد القومي، فاللغة تحمل شحنات من المشاعر والأحاسيس المشتركة بين أفراد الأمة يستطيع الإنسان إدراكها بشكل دقيق وفعّال ، من خلال اللغة المشتركة التي يستخدمها هؤلاء الأفراد، ولاشك أن هذا الرابط من الأهمية بمكان ؛لأنه "يمثل الناحية الوجدانية والنفسية التي تعبر عنها روح الأمة، فهي معان ليست موضوعية، بل ذاتية يشعر بها المنتمي إلى الأمة التي تستعمل تلك اللغة، ولا يدركها الأجنبي بسهولة ؛لأن هذه الروح أو المعاني قد نمت داخل الفرد منذ الصغر ، وتشرّبت بها نفسه من خلال التربية البيئية والمشاركة الاجتماعية والتربية المدرسية والتعليم بصورة عامة"[27].

ويمكن ملاحظة هذا التواصل الفكري العاطفي بين الأفراد ،عند اللقاءات التي تتم بين الأشخاص في البيئات الغريبة أوفي بيئة بعيدة عن بيئاتهم ، فإذا تقابل عربيان في مؤتمر خارج البيئة العربية (أوروبا مثلا) فإن انجذابا واضحاً وملحوظا يحدث بينهما ، مع أن كلا منهما – في تلك المؤتمرات العالمية- يجيد اللغة الإنجليزية ،ويستطيع التفاهم مع غيره بسهولة ، لكنه يكون أشد انجذابا وانخراطا مع مثيله لغويا. إن هذا يلاحظ كثيراً بين العرب في المؤتمرات العالمية خارج البيئة العربية ، مع ملاحظة عدم التعارف المسبق بين هؤلاء الأفراد.

اللغة والحدود الجغرافية وصناعة الهوية

أمامنا ثالوث يشكل – بوضوح- ترابطاً فعّالا لرسم ملامح الهوية المرتبطة بالمكان، إن الربط بين هذه العناصر الثلاثة يمثل دوراً أساسياً وواضحا في تجسيد هوية الإنسان ، والسؤال الذي نطرحه الآن هو: إذا كان الربط واضحاً بين اللغة والهوية إلى هذا الحد، فهل نستطيع تجاهل دور اللغة في رسم الحدود الجغرافية التي – على أساسها- تبني فكرة الهوية الجماعية والوطنية والقومية؟ بمعنى آخر: هل يمكن وجود هوية لغوية بدون انتماء لحدود جغرافية معينة؟ أعتقد أن الإجابة عن هذين السؤالين تقتضي البحث في مفاهيم العلاقة بين اللغة والهوية والمكان ،وتأمل ملامح الامتزاج بينها، لنقرر في النهاية ما إذا كانت اللغة صانعة لحدود جغرافية، ومن ثم صانعة للهوية أم لا؟ من المؤكد أن الهوية تحدد لصاحبها توجهاته الفكرية والعقدية والأيديولوجية، وهذه الهوية هي التي تربط بين صاحبها وغيره ممن يؤمنون بالاتجاهات نفسها من فكر وعقيدة وأيدلوجيات خاصة وغير ذلك، وهؤلاء الناس الذين تربط بينهم تلك الهوية بدءا من اللغة وانتهاء بأفكار جزئية تشكل ثقافة الفرد الكلية. أقول هؤلاء الناس لابد أن يجمعهم محيط جغرافي واحد، يضمهم بمصالحهم

المشتركة، وانتماءاتهم الواحدة ، فيُوجد بينهم امتزاجاً ملموساً يوحد توجههم ، ويرسم لهم طريقاً واحداً، ومن هنا ندرك أهمية مقولة "أن التلاحم المكاني والتوحد اللغوي بصفتهما حقيقتين ثابتتين واقعيا، ودائمتين تاريخيا، يشكلان معا الأساس الصلب لأي حركة قومية"[28].

وهنا تظهر قيمة الربط بين اللغة التي تصنع حدوداً جغرافية ، والهوية التي تتشكل في نفوس من يعيشون على هذه البقعة التي تضمها لغة واحدة ، وهناك من ذهب إلى أبعد من ذلك، فاللغة تمثل عاملاً وعنصراً جوهريين في الوجود القومي، ومن وجهة نظرهم الواضحة أنه غالبا ما تصبح الحدود اللغوية على بقعة جغرافية معينة هي الحدود السياسية للأمة ، وأنه كثيراً ما تنشب الحروب بين مجموعات بشرية، أو أمم بسبب محاولات تبذلها أمة معينة لضم مجموعة لغوية، تشترك مع الأمة بروابط لغوية ، وغالبا ما يتعاطف الأفراد الذين تضمهم أمة لا ينتسبون إليها لغويا مع أمة أخرى تربطهم بها روابط لغوية[29].

ومن أبرز هذه النماذج إقليم الكيبك في كندا، وهو جزء كبير من الأمة الكندية يمثل ثلث كندا جغرافيا ، يتحدث أهله باللغة الفرنسية، ولكنه ليس متعاطفا مع بقية الكنديين المتحدثين بالإنجليزية، ولا يشعر بأي انتماء إلى كندا، بل إن مشاعرهم وانتماءاتهم إلى فرنسا التي تتحدث بلغتهم الأم ، وهي الفرنسية ، بل ويحاول هذا الإقليم الانفصال عن كندا ، ويتظاهر سكان هذا الإقليم كثيراً إذا ما حدث تغير يمسّ لغتهم الوطنية الفرنسية ، فهم يشعرون أن كرامتهم في لغتهم، وتدعمهم فرنسا في ذلك كثيراً[30].

يضاف إلى ذلك أنه قد تسعى جماعات متباينة لغويا في ظل دولة واحدة إلى الانفصال ، بقصد بناء دولة مستقلة ، أو إقامة حكم ذاتي في ظل الدولة الواحدة. كما تسعى الجماعات اللغوية المتشابهة لغويا ،أو التي توحدها لغة واحدة إلى بناء دولة قومية واحدة ، على الرغم من تعدد الحكومات التي تحكم هذه الجماعات واختلاف عقائدها السياسية وتنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية[31].

وتبدو هذه الصور في نماذج كثيرة ،منها انفصال جنوب السودان لظروف الصراع المتنوعة ، وعلى رأسها استخدام لغة مخالفة للغة الشمال السوداني ، ليصبح الشمال دولة مستقلة، وربما ساعد على هذا الانفصال اختلاف الديانة، لكن العامل اللغوي هو الأقوى في هذا الموضوع، ولا نبالغ إذا قلنا إن اللغة ترسم حدوداً طبيعية أيضاً فقد قال فيخته:"إن الذين يتكلمون لغة واحدة يؤلفون من أنفسهم كتلة موحدة ربطت الطبيعة بين أجزائها بروابط متينة، وإن كنا لا نراها . إن الحدود التي تستحق أن تسمىّ حدوداً طبيعية بين الشعوب هي التي ترسمها اللغة"[32].

ليس إذن من قبيل المبالغة القول بأن اللغة هي التي ترسم الحدود الجغرافية والسياسية والطبيعية بين الأمم، فهي أيضا ترسم هوية الأمة ، وتحدد ملامح انتماءاتها، وإذا كانت الحدود الجغرافية اللغوية هي التي ترسم للفرد هويته وانتماءه ،فعلينا فهم ما يقوله هيدجر عن اللغة على أنه حقيقة لا مجاز عندما يقول "إن لغتي هي مسكني ، هي موطني ومستقري، هي حدود عالمي الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ، ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع"[33].

إن هذا المسكن والموطن والمستقر ،هو تلك الحدود الجغرافية التي يرسمها استخدام لغة واحدة، ترتبط بمعالم وتضاريس هي حدود عالمه ،ومن خلال هذه المعالم والتضاريس وتلك الحدود التي تحتويه وتضمه يستطيع أن ينظر إلى بقية أرجاء الكون ، ولاشك أن الفهم على الحقيقة أو المجاز إنما هو مفيد في دلالاته ويؤسس لأن تكون اللغة مسكنا ،أو تكون الحدود الجغرافية مسكنا من خلال لغة واحدة تحدد له رؤيته لنفسه وللآخرين.

إذا ما أردنا أن نقترب من اللغة العربية، فهناك كثير من الاعترافات بأن اللغة العربية هي التي رسمت الحدود الجغرافية البشرية للأمة العربية[34] ،علاوة على أنها رسمت الحدود الطبيعية بين الأمة العربية وغيرها من الأمم، وكذلك رسمت الحدود السياسية أيضا ، من خلال ما يطلق عليه الوطن العربي، هذا الوطن الذي يشكل المجال الجغرافي التاريخي للوعي بوجود الآخر الذي به تتحدد الأنا كهوية منفصلة إن لم تكن مغايرة تغاير تضاد مع ذلك الآخر[35].

هذا الوطن المتصف ب (العربي) لأن اللسان عربي وهو موطن الانطلاق إلى العروبة الموحِّدة بين العرب أجمعين، فالعربي – أيا كانت دولته– يظل عربيا بعروبته حتى ولو عاش مهاجراً خارج بلده ،فيظل منتسباً إلى لغته وموطنه الأصلي الذي تربى فيه ونشأ ؛ فيقال (عربي) نسبة إلى العربية أو إلى العرب، وفي هذا إحساس بالانتماء إلى المكان ، الذي يظلل الفرد بظل العربية وثقافتها .

ومن هنا كانت رؤية إدوارد سعيد أن الهوية مَنْ نحن؟ من أين جئنا؟، ما نحن؟ ويكمل قائلاً: "شيء صعب المنال في المنفى نحن الآخر المعارض صدع في هندسة إعادة الاستيطان، والرحيل، الصمت والحذر يغطيان الألم، ويبطئان بحث الجسد، ويهدئان لوعة الخسارة. وقد ظلت مسألة الهوية بالنسبة إلى فلسطين مسألة محيرة، لأنهم أبعدوا عن ديارهم، فكأن الهوية ملتصقة بالمكان، وأن هذا المكان يؤثر إلى حدّ ما في شخصية الفلسطيني أو أي شخص آخر" [36].

ومن هنا فلسنا مع من يقول: لقد انتهى عصر القوميات والهويات ، ونحن الآن في عصر الفضائيات ،وإذا كان الجزء الثاني من المقولة صحيحا ، وهو أننا في عصر الفضائيات ،فإن الجزء الأول ليس صحيحاً "لأن هذا حكم ذهني لا يستند إلى الواقع، والحكم الصحيح والعلمي في مثل هذه الدعاوى، هو الواقع لا غيره، والواقع ما نشاهده ، وما نشاهده هو انبعاث الروح القومية والانكفاء في إطار هويات ضيقة في بلدان الشمال، كما في بلدان الجنوب"[37].

وفي هذا الإطار إذا تساءلنا من هو العربي، فإن الإجابة ستكون بالتأكيد حاكمة على عدم صدق الجزء الأول من المقولة السابقة، لأن الإجابة مرتبط باللغة والمكان والثقافة ، مما يؤكد الهوية والقومية.

ولعل الحديث عن اللغة والهوية والمكان ينقلنا إلى الحديث عن قضية مهمة في حقل الهوية، تلك القضية هي: هل تموت الهوية أو يقل بريقها عند المغتربين من الأفراد الذين غادروا بلادهم ، وعاشوا بعيداً عن أوطانهم الأم؟

مبدئياً لابد أن نفرق بين نوعين من الأفراد:

أولاً: الأفراد الذين ولدوا خارج وطنهم ، وخارج لغتهم الأم ، وعاشوا في بلاد بعيدة عن وطنهم الأصلي .

ثانيا: الأفراد الذين ولدوا في وطنهم وبين أحضان لغتهم الأم ،وتعلموها، وتأثروا بأفكارها وثقافتها ، وشربوا عادات وطنهم وتقاليده ،وتلك الفئة الثانية هي الفئة التي سيكون الحديث عنها ،ويكون السؤال منصبا عليهم. هل تموت الهوية عند هؤلاء؟

تحتاج الإجابة عن هذا السؤال إلى توضيح بعض الرؤى اللغوية المؤكَّدة في أعراف الدراسات اللغوية حتى أصبحت يقينا عند الشعوب، حين يصرح إدوارد سابير عن تلك الأعراف قائلاً: "إن الناس إنما هم تبع في تفكيرهم وإحساسهم ومشاعرهم ونظرتهم إلى الكون للعادات التي اكتسبوها من خلال ممارستهم للغة قومهم، ثم زاد بعضهم فقال: إن دراسة صيغ لغة من اللغات، إنما هي في الحقيقة دراسة لصيغ التفكير وطرقه عند القوم الناطقين بتلك اللغة"(38).

ومن هنا نقول إذا تغرب الإنسان في بيئة جديدة ، وظل محتفظا بلغته وبطريقة تفكيره بها وبنمط السلوك الإنساني الذي رسمته تلك اللغة الأم للإنسان، فإنه سيظل يشعر بالهوية الأصلية وبالانتماء إلى تلك اللغة الأم ، وبموطنه الأصلي، فكثير من الذين غادروا أوطانهم وهم يافعون إلى أوطان جديدة ،وتعلموا لغة ذلك الوطن الجديد، يظل إحساسهم باللغة الأم وطريقة التفكير بها، وهم في هذه الحالة سيظلون محتفظين بتلك الهوية التي لم تنخلع من قلوبهم. إنها مازالت تعيش بداخلهم رغم العيش في مجتمع جديد عليهم ، وتعلم لغة جديدة يتعاملون بها داخل هذا المجتمع.

ولعل أبرز مثال على ذلك الإبداع الأدبي للعرب المغتربين في أوروبا وأمريكا باللغة العربية، فعلى الرغم من حصولهم على جنسية تلك الدول التي هاجروا إليها وإجادتهم للغة الجديدة عليهم إجادة كاملة، ربما أكثر من إجادة بعض أهل هذه الدول للغتهم. لكنهم يبدعون باللغة العربية ،ويحرصون على عرض إبداعهم ونشره في تلك البيئة الأم. إن إحساسهم بالهوية العربية مازال مجسداً وشعورهم بالانتماء العربي مازال في دمائهم، وارتباطهم باللغة الأم مازال طريقهم الأول إلى عالم الإبداع، فالإبداع باللغة الجديدة ليس عسيراً عليهم، تلك اللغة التي تعلموها وأجادوها، لكنهم يرجعون إلى لغتهم الأم فيبدعون بها؛ لأنها هي الأقرب إلى مشاعرهم ورؤاهم وأفكارهم وأحلامهم، والأكثر تأثيراً فيهم، فهم على ولائهم لموطنهم الأصلي ولغتهم الأولى، إنهم يشعرون بالانتماء إلى تلك اللغة الأم وبيئتها ومنظومتها الثقافية ، وإلا لكان إبداعهم جاء في ثياب تلك اللغة الجديدة التي يتحدثون بها وقد قابلت بعضهم في مؤتمرات كثيرة ، وتكلمت معهم عن ذلك ، وأشاروا إلى وجود الكثيرين من أمثالهم الذين لا تتاح لهم فرصة حضور هذه المؤتمرات ، وتكلموا كثيرا عن هذا الإحساس الذي يمتلك مشاعرهم بالهوية والانتماء إلى الوطن الأم واللغة الأم .

ولعل تعليل اختيار هذه اللغة الأم للإبداع بها ،ما نجده عند "لويس جان كالفي" عندما يقول: "إنني حين أكون قادراً في وضع ما على الاختيار بين عدد من اللغات، فإن لاختياري دلالة، كما أن لمحتوى الرسالة دلالة في الوقت نفسه. نريد أن نقول –والكلام للويس جان– إن للشكل اللغوي الذي نختار الحديث به دلالة ذاتية، هي الرسالة، ولهذا الشكل اللغوي على صعيد آخر دلالة إيحائية"(39).

إن هذا الاختيار اللغوي يدل على أن الانتماء متجذر في نفس هذا الشخص الذي لا يستطيع التخلي عن تلك اللغة والثقافة التي كوّنت ذاته، وأوجدت كينونته وصنعت هويته التي لا يستطيع نسيانها في يوم ما.

وسأدلل على ذلك بقصة طريفة حدثت معي، فقد كنت مدعواً إلى جامعة الشارقة بدولة الإمارات لإلقاء محاضرة للحديث عن هموم اللغة وصراع الحضارات حولها ، وبعد انتهاء المحاضرة، حضر إلي شاب من الجامعة نفسها في أدب شديد ، وربما خجل أيضا، فشجعته على الكلام لِما وجدته من إحساس بالتردد ، فقال لي: أنا عربي ووالداي عربيان ، ولكنني ولدت بأمريكا ، ونشأت بها وتربيت على ثقافتها ، وكان حديث الأسرة في البيت باللغة الإنجليزية، ولكنني تعلمت اللغة العربية هناك دون إجادتها، وعندما حصلت على الثانوية العامة ،وكنت على أبواب الدخول إلى إحدى الجامعات الأمريكية، إذا بأبي يقرر أن أعود إلى هذا البلد العربي (الإمارات) التي تتحدث العربية، ومنذ سنتين أتابع دراستي ، ولكنني أشعر بأنني غير قادر على الاندماج في مجتمع الطلاب ،ولا في المجتمع خارج الجامعة، فانتمائي إلى أمريكا التي تعيش بداخلي.

إن هذا الطالب قد تشرب ثقافة البيئة الأمريكية من خلال اللغة الإنجليزية في سنواته الأولى المؤثرة في حياته؛ أي خلال ثماني عشرة سنة، هي كفيلة بتحديد ملامح هوية الإنسان، فتشرب ثقافة البيئة وطريقة التفكير واندمج مع عادات هذا البلد وتاريخه ، فكان عسيراً عليه فكرة الاندماج في مجتمع جديد، مع أنه –على حد قوله– يجيد العربية كتابة وتحدثا بعد سنتين من حياته بتلك البيئة العربية ، ومن هنا يجب أن ننظر بحذر إلى من يقول : "ليست هناك إذا لغة (أم)، بل هناك لغة أولى"[40] ،لأن اللغة (الأم) أو لغة (الأم) هي اللغة الأولى في حياة الطفل، وعادة ما يكون الطفل قد تعلم هذه اللغة من أمه التي يرث منها تلك اللغة ، وتكون بطبيعة الحال هي تلك اللغة الأولى في حياته ، يتربى عليها وينمو على ثقافتها، وإذا افترضنا أن عربيا نشأ في بيئة أجنبية ،كالأوروبية مثلاً ، وكانت لغة الأب والأم هي العربية ، ولكنهما لم يعلما الطفل تلك اللغة بل علماه لغة البيئة التي يعيشون فيها – الانجليزية مثلا– فإن لغته الأم حينئذ ستكون هي تلك اللغة التي تعلمها ، وإن كانت مخالفة للغة الأب والأم الأصلية التي لم يعلماها للطفل، كما في حالة هذا الطالب

وهنا يعطي " لويس جان كالفي" بعض النماذج المتشابهة ،حينما يقول: "إن لغة البلد المضيف سواء أكانت الفرنسية أم الإنجليزية بالنسبة للطفل المولود من أبوين مغربيين في فرنسا أو للطفل المولود من أبويين صينيين في الولايات المتحدة الأمريكية أو من أبويين هنديين في بريطانيا العظمى، هي لغة الاندماج في البلد المضيف ولغة الترقية الاجتماعية، كأنها في الوقت نفسه لغة التكيف مع نموذج غالب خارج الأسرة، ولغة الترقي الاجتماعي.هذا التوتر بين المتماثل والمتغاير يمكن أن يتطور نحو قبول الثنائية ، فيصبح الطفل حينئذ ثنائي اللغة، أو نحو رفضها، فلا تعود لغته الأولى لغة الأهل"[41].

و على هذا إذا كانت القواميس الشائعة تعرف اللغة الأم بأنها لغة البلد الذي فيه ولدنا [42]، فإن هذا التعريف يعدّ قاصراً ،فلو عاش عربي في بيئة إنجليزية ولكنه لم يتعلم الانجليزية على الإطلاق، بل تعلم العربية في مدارس عربية داخل تلك البيئة الإنجليزية، فإن لغته الأم ستكون العربية، وكثير من النماذج المعكوسة توجد في بيئتنا العربية، فبعض الأجانب

من دول أوروبية يعيشون في بيئات عربية، ولكنهم يعلمون أبناءهم الذين ولدوا في تلك البيئة العربية باللغة الإنجليزية، فتكون لغتهم الأم هي الإنجليزية.

إنهم يعيشون في تلك الظروف مغتربين لغة وثقافة وأرضاً، ويظل انتماء الطفل في هذه الحالة للغة والديه ووطنهم الأصلي؛ لأنه لم يندمج في تلك البيئة بلغتها وثقافتها، بل وغالبا ما يكون الطفل غير مندمج اندماجاً تاماً مع أمثاله ، ونلاحظ ذلك في المجمعات السكنية التي سكنّا فيها مع مجموعة من الأجانب لفترة طويلة تزيد عن سبع سنوات في بعض البلدان العربية .

وفي الحالات الطبيعية ، وهي أن يتعلم الطفل لغته الأم في وطنه، فإن لغة الأم ولغة الوطن شيء واحد ،ويكون الانتماء أقوى في هذه الحالة، بدلا من الشعور في بيئة مغتربة بالثنائية اللغوية التي يمكن أن تقلل من الشعور بالانتماء للغته ووطنه الأصلي أو الجديد.

الحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية

في يقيني قناعة مؤكدة ، أن الحفاظ على اللغة حفاظ على الهوية، وليس ذلك مبنيا على أقوال بعض الباحثين فقط، حينما قال د. أحمد درويش: "ليس أمامنا مفر من العودة إلى إدراك أهمية الربط بين اللغة والهوية، وإدراك أن المحافظة على إحداهما محافظة على الأخرى، وأن إنقاذ إحداهما إنقاذ للأخرى"[43] .أقول ليس إيماني نابعا من مثل هذه الأقوال فقط، بل إن نتائج التحليل والتأمل تؤكد ضرورة الاقتناع بهذا الربط بين اللغة والهوية وجودا وعدما ، ويتمثل هذا الربط فيما يلي :

(1) أن الحفاظ على اللغة ،إنما هو حفاظ على الخصوصية الثقافية، التي تميز العرب بتاريخهم الطويل وثقافتهم المتميزة في عصور الحضارات السابقة ،"فاللغة في واقع الحال لا تعكس التراكمات المعرفية والتاريخية فحسب، بل تحمل معها هذا الفيض من التراكمات لتنقله في آفاق من الزمان والمكان وليكون عنصراً محدداً لخصائص الثقافة والتفكير لدى أصحاب هذه اللغة"[44] ويكون في الحفاظ على اللغة إنقاذ لتلك الثقافة ،وفي ذلك حفاظ على هويتنا .

(2) اللغة لا تحمل ثقافة الأمة العربية فحسب؛ بل تجسد في عقل العربي وروحه منظومة من القيم والأخلاق التي تجعل العربي ساميا في نفسه وروحه ، وقد عبر عن ذلك عمر بن الخطاب، الذي تيقن من أثر العربية في فكر المسلم وسلوكه وثقافته وكل معارفه، فقال موصيا أصحابه: "تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة"، وذكر في رسالته إلى واليه أبي موسى الأشعري " أنْ مُرْ مَنْ قَبلك بتعلم العربية، فإنها تدل على صواب الكلام".إن هذه النتائج المترتبة عن استخدام العربية تؤكد روح الهوية المجسدة في نفس العربي، ومن هنا لابد من الحفاظ عليها ؛لأن الحفاظ على اللغة حفاظ على تلك الروح السامية للإنساني العربي، مروءة وصدقاً وصوابا وثقافة وفكرا وسلوكاً.

(3) اللغة العربية تصنع ربطاً واضحا بين أبنائها ومستخدميها، فهي العروة الوثقى للمجتمع كله، وهي شريانه الحيوي، تقوي بقوة نزوع المجتمع إلى الوحدة والترابط، وتقوي أواصر التفاهم بين أبناء المجتمع الواحد[45]. وفي ذلك الترابط قوة للمجتمع وحصانة له في عصر العولمة.

معوقات الهوية

إذا كنا قد ربطنا بين اللغة والهوية، وأكدنا أن اللغة هي المؤسس الأول لصناعة الهوية، فإننا نستطيع القول بناء على هذا الربط بأن تدهور اللغة إنما هو تدهور للهوية، وتردي حالة الإنسان المعاصر ثقافة وفكرا ينتج عن عدم معرفة الإنسان بلغته معرفة دقيقة، أو في خلق ثنائية لغوية لديه، ليحمل في نهاية الأمر مسخاً لغويا شائها يضعف من وعيه وثقافته ، وبالتالي يضعف من الوعي القومي بشكل عام، يقول د. يحيى الرخاوي : "إن تدهور اللغة (اللغات) قد عاد بدوره على الوعي القومي بمزيد من التدهور، فنشأت حلقة مفرغة دوامة"[46]، وهو يؤكد أنه إذا كان الوجود لغة، واللغة إبداعاً ولا هوية ولا بقاء بغير ذلك، ويتساءل: فأي لسان أقرب وأصلح لنا حتى يمكن استثمار ما هو لغة لازمة وإبداع ممكن؟[47] ، ومن ضمن هذه المعوقات الواضحة هذا الانفتاح الذي لا تحده حدود ولا يوقفه معارض، فلاشك أن الانفتاح يحتوي على كثير من الجوانب الإيجابية في حياة الشعوب من تقدم علمي وتفاعل ثقافي وامتزاج فكري، وصنع حوار يصل بالطرفين إلى الأفضل ، ولكن يتم ذلك بشروط:

1- وضوح الرؤية لدى كل الأطراف ، بحيث لا يكون هناك أهداف سرية يفاجأ بها أي الطرفين، كالسيطرة عليه أو الارتقاء على حسابه، أو جعله بوابة للوصول إلى هدف ما.

2- أن يظل كل طرف محتفظاً بلغته وتاريخه ومبادئه وثقافته ،ويكون الاحترام مجسداً لثقافة الآخر ولغته، مع محاولة الإفادة من ثقافة الآخر .

3- احترام كل طرف لهوية الآخر وثقافته وقوميته .

ثمة قضية أخرى مرتبطة بالانفتاح وتمثل عاملا أساسيا في قضية معوقات الهوية، تتمثل في عدم احترام أهل اللغة لها وخاصة الأجيال الجديدة تلك الأجيال التي "تشطت في استخدام اللسان الأجنبي ناسية أو متناسية أن في هذا الاتجاه قضاءً على هويتنا وشخصيتنا إلى حد الضياع"[48].

ولعل ما بدأ في مصر منذ أكثر من نصف قرن زحف إلى دول كثيرة، إن لم يكن إلى كل الدول العربية من استباحة اللغة العربية لحساب اللغات الأجنبية، يقول غالي شكري[49]: " لست أعرف لغة استبيحت في عقر دارها علنا في وضح النهار كما استبيحت اللغة العربية في مصر وفي قلب القاهرة، حيث يمكن للعين المجردة لأي مسؤول أن تشعر بالتغذي بجرحها، ذلك أن ما جرى ويجري باسم السياحة والاستثمار والانفتاح قد بلغ حداً يؤذي الكرامة الوطنية في أحد رموزها

الغالية وهو اللغة" نعم يؤذي الكرامة الوطنية ويبعثر هيبة اللغة وهوية الدولة، عدم احترام الإنسان لذاته فمن يترك هويته في مهب الريح تبعثرها في كل مكان ،فإنه لا كرامة له .

وما نجده اليوم من تلك الأخطار المحدقة باللغة العربية ،وبالتالي ، بالهوية القومية في تلك المجتمعات الناطقة بالعربية ، إنما يعدّ انقلابا لغويا هادئاً لا على نمط الانقلابات العسكرية المفاجئة التي تقوم بها دول أجنبية، وإنما هو تخطيط لغوي وسياسي منظم ،تقوم به بعض الدول مستغلة الانفتاح الثقافي على الدول، لصنع حالة من التغريب على كل مستويات ، لغويا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا، وذلك لصالح اللغات والثقافات الأجنبية.

الخاتمة

إذا كانت اللغة عنوانا للهوية، و كانت الهوية دليلا على النسق الثقافي للفرد، فإن اللغة إذن هي التي ترسم ثقافة الإنسان وتنظم فكره ،فالربط بين اللغة والهوية هو أحد أقوى الروابط الإنسانية والاجتماعية، كما أن اللغة تؤثر في سلوك الفرد، هذا السلوك الناتج عن العمليات العقلية اللغوية التي تؤسس اللغة لها من جوانب متنوعة معرفيا ووجدانيا، فالمفاهيم الإنسانية والمعاني المجردة التي ترسم للإنسان تصرفاته الواقعية، إنما تحدد من خلال اللغة ، وإذا كان أمر الارتباط قائما إلى هذا الحد، وكانت الهوية هي كينونة الفرد ووجوده ، فإن اللغة– وهي الفاعل الأول للهوية– ينبغي أن نحتفي بدورها.

وفيما يلي بعض المقترحات التي أشير إليها في خاتمة البحث، وتلك المقترحات هي:

(1) ضرورة دعم اللغة العربية وتنشيط بقائها وشيوعها واستمرارها لتكون لغة فكر وثقافة ، من خلال وضع استراتيجيات لغوية بهدف دعم الهوية العربية وتقوية روح الولاء والانتماء للإنسان العربي.

(2) الهوية هي الوجود والكينونة وإثبات الذات،واللغة صانعة لتلك الهوية، ولهذا يجب علينا الحفاظ على وجودنا وكينونتنا بالحفاظ على لغتنا، وضرورة التأكيد على أن محاربة اللغة هي محاربة الهوية، ومحاربة الهوية هي محاربة ذواتنا.

(3) ضرورة الاهتمام بالتوحد اللغوي ، وذلك بتجسيد الفصحى في حياة كل فرد من أفراد وطننا العربي لتقليل حدة الصراع بين اللهجات ،فاستخدام اللهجات عامل اختلاف وتفكك بين العرب.

(4) تفعيل دور المؤسسات الوطنية المختصة باللغة العربية لوضع استراتيجيات ثقافية تنويرية للجمهور العام وطلاب المدارس لغرس روح الولاء والانتماء و قيم الهوية العربية في نفوسهم، وتعريف الشباب خصوصا بدور العربية في رسم ملامح تراث العالم الحضاري.

(5) عدم الانخداع بما يخطط له البعض من محاولة اقتلاع هويتنا الثقافية وانقطاعنا عن التراث بحجة أننا في عصر العولمة والانفتاح ، وأن العالم أصبح قرية صغيرة للمعرفة، ومن هذا القبيل ما يطالب به البعض من ضرورة كتابة الأعداد العربية بالحرف اللاتيني، بحجة أن هذا الشكل الذي يدعوننا إليه هو أصل الكتابة العربية

للأعداد، ونسوا أو تناسوا أن شكليْ الكتابة إنما جاءا من الهند، فهما من أصول هندية ، ثم ما هذا الاكتشاف الحديث الذي خرق أسماع العالم فجأة، فقرر الأوروبيون على إثره ضرورة إعادة الحق لنا في كتابة الأعداد بهذا الشكل، إنه جزء من طريق طويل لاقتلاع هويتنا العربية.

(6) ضرورة الدعوة إلى التمسك بالحديث إلى الآخرين باللغة الفصحى في المناسبات الرسمية والمؤتمرات والندوات واللقاءات العامة المنعقدة في البيئة العربية، كما يفعل الألمان والفرنسيون والأسبان وغيرهم في بلادهم، عندما يتمسكون باللغة الأم ، يتحاورن بها ويشترطون من المشاركين من جنسياتهم الحديث باللغة الأم على أن توجد ترجمة فورية.

(7) توحيد الجهود الرامية للحفاظ على اللغة باعتبارها المؤسس الأول للهوية القومية والحفاظ على الانتماء العربي، وذلك من خلال مؤسسة كبيرة يشارك فيها الجميع ،مثل المجلس الدولي للغة العربية ،أو أي مؤسسة يتفق عليها الجميع ،وتستظل بدعم الحكومات العربية .

(8) ضرورة التخطيط لدور وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب ، لحفز الشعوب العربية على التمسك بلغتهم، وتوضيح سبل الحفاظ على هويتهم من خلال الحفاظ على اللغة العربية.

(9) تشكيل هيئة عليا تضم أعضاء من كل الدول العربية للبحث في مشكلات اللغة ، ووضع سياسات لغوية مدعومة من أصحاب القرار ،على أن تكون الحلول المطروحة واجبة التنفيذ ،كإزالة التلوث اللغوي الموجود بالشارع العربي، مثل اللافتات المكتوبة بالحرف اللاتيني، ومخاطبة وسائل الإعلام التي تستخدم لهجات غير مفهومة.. إلى غير ذلك، مما يكون علاجه واجبا وحاسماً.

المراجـع

1- دليل السوسيولسانيات ، فلوريان كولماس ، ترجمة خالد الأشهب و مجدولين النهيبي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،ط 1 2009 ، ص686.

2- اللغة العربية في العصر الحديث – قيم الثبوت وقوى التحول ، د نهاد الموسى دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن ، غزة ، 2007 ، ص58.

3- اللغة ... جدل الهوية والمعرفة، د لطيفة النجار ، دار العالم العربي للنشر والتوزيع ، دبي ، ط 1 ، 2008 ص65.

4- سؤال اللغة: الهوية وزمن التحولات، عيسى برهومة من كتاب : آفاق اللسانيات، دراسات – مراجعات – شهادات ، تكريما للأستاذ الدكتور نهاد الموسى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2011 ، ص155، 156.

5- اللغة العربية في العصر الحديث – قيم الثبوت وقوى التحول(مرجع سابق) د. نهاد الموسى ، ص58.

6- انظر الهوية والقلق والإبداع، د. محمد إبراهيم عيد الناشر دار القاهرة ، القاهرة – شارع محمد فريد ، 2002 ص17، والعولمة والهوية د. محمد شريف عبد الرحمن ،دار الهدى للنشر والتوزيع ، المنيا ، جمهورية مصر العربية ، ط 1 ، 2008 ،ص50.

7- الهوية والقلق والإبداع ، د. محمد إبراهيم عيد، (مرجع سابق) ص18..

8- الهوية في دولة الإمارات العربية المتحدة – دكتوراه– جامعة القاهرة،كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، إعداد محمد على عمير الشرياني، ص34.

9– التربية والتعددية الثقافية، د. السيد عبد العزيز البهواش، دار الفكر العربي، القاهرة 2002م، ص168.

10– الهوية في دولة الإمارات العربية المتحدة – (مرجع سابق) محمد الشرياني، ص40.

11– ابتهاج عبد القادر محمد أحمد: العلاقة بين ثنائية اللغة وبين تشكيل الهوية الثقافية لدى المراهقين، رسالة ماجستير – معهد الدراسات العليا للطفولة، جامعة عين شمس، 1998م، ص41.

12– الهوية والقلق والإبداع د. محمد إبراهيم عيد، (مرجع سابق) ص19.

13– الهوية والقلق والإبداع، محمد إبراهيم عيد ، (مرجع سابق) ص21.

14– سؤال اللغة– الهوية وزمن التحولات ، عيسى برهومة، من كتاب :آفاق اللسانيات
(مرجع سابق) ص160.

15– الهوية في دولة الإمارات – دكتوراه – جامعة القاهرة ،كلية الاقتصاد، محمد الشرياني، (مرجع سابق) ص38.

16– الانتماء ، د. أحمد الأنصاري ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، 2004 ، ص7.

17– الانتماء – د. أحمد الأنصاري، (مرجع سابق) ، ص7.

18– الانتماء، أحمد الأنصاري، (مرجع سابق) ،ص8.

19– فلسفة الولاء، جوزايا رويس ، ترجمة أحمد الأنصاري، ومراجعة حسن حنفي ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ط 2 2009 ص14.

20– الانتماء ، (مرجع سابق) ، ص8.

21– أحادية الآخر اللغوية، جاك دريدا: ترجمة وتقديم د. عمر مهيبل الطبعة الأولى، 2008، منشورات الاختلاف– الجزائر، الدار العربية للعلوم ،بيروت ، ص10.

22– أحادية الآخر اللغوية – المقدمة د. عمر مهيبل ، (مرجع سابق) ص10، 11.

23– جاك دريدا: أحادية الأخر اللغوية، (مرجع سابق) ص109.

24– جاك دريد أحادية الأخر اللغوية، (مرجع سابق) ص28.

25– سؤال اللغة – الهوية وزمن التحولات عيسى برهومة من كتاب : أفاق اللسانيات ،
(مرجع سابق) ص158، 159.

26– عالم بابلي – تاريخ اللغات ومستقبلها ، هارالد هارمان، ترجمة سامي شمعون– الدوحة– المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث ، 2006، ص45.

27– اللغة والوجود القومي ، ياسين خليل، من كتاب : اللغة العربية والوعي القومي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1984 ص344.

28– التعريب والقومية العربية في المغرب العربي ، د. نازلي معوض أحمد ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،1986 ، ص25، وانظر محي الدين صابر: "الأبعاد الحضارية للتعريب" في كتاب : التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية– مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1982، ص71. .

29– اللغة والوجود القومي– ياسين خليل من كتاب اللغة العربية– أسئلة التطور الذاتي والمستقبل ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 2005، ص32، وانظر البحث نفسه في كتاب : اللغة العربية والوعي القومي، ص343 .

30– اللغة العربية وصراع الحضارات، د. أحمد عفيفي، مجلة الرافد الإماراتية عدد فبراير 2005 ص 100.

31– اللغة والوجود القومي، ياسين خليل، في كتاب اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، (مرجع سابق) ص32.

32– نقلا عن كتاب: "اللغة العربية في العصر الحديث، د. نهاد الموسى، (مرجع سابق) ص57.

33– انظر : إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية، د .أحمد درويش، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ط 2 ، 2007 ص18.

34– اللغة العربية في العصر الحديث، د. نهاد الموسى، (مرجع سابق) ص59، التكوين التاريخي للأمة العربية، عبد العزيز الدوري، مجلة دراسات إسلامية، جامعة اليرموك، 1983، ص163 .

35– انظر الهوية، العولمة، المصالح القومية، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2011 ، ص14 .
36– سؤال اللغة :الهوية وزمن التحولات، عيسى برهومة، من كتاب :آفاق اللسانيات، (مرجع سابق) ص159 .
37– الهوية – العولمة– المصالح القومية، د. محمد عابد الجابري، (مرجع سابق) ص29.
38– الأسس النفسية والاجتماعية للغة العربية، الشاذلي الفيتوري، من كتاب: اللغة العربية والوعي القومي، (مرجع سابق) ص159 .
39– حرب اللغات والسياسة اللغوية، لويس جان كالفي ،ترجمة حسن حمزة ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ط1، 2008، ص139 .
40– حرب اللغات والسياسات اللغوية، (مرجع سابق) ص152.
41– حرب اللغات والسياسات اللغوية، (مرجع سابق) ص155 .
42– حرب اللغات والسياسيات اللغوية، (مرجع سابق) ص153.
43– انقاذ اللغة انقاذ الهوية ، (مرجع سابق) ص28 .
44– الدور الحضاري للعربية في عصر العولمة، د. بن عيسى باطاهر ، جمعية حماية اللغة العربية، الشارقة، ط1، عام 2001، ص17 .
45– لغة الحضارة وتحديات المستقبل، د. عبد العزيز شرف – الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999 ،ص172 .
46– اللغة العربية وتشكيل الوعي القومي، د. يحي الرخاوي ،من كتاب: لغتنا العربية في معركة الحضارة، إشراف محمود أمين العالم الكتاب صادر عن : قضايا فكرية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، القصر العيني ، 1997 ص24. .
47– المرجع السابق، ص27.
48– الواقع اللغوي، والهوية العربية، د. أحمد سمير بيبرس، دار الفكر العربي 1989، ص11 .
49– جريدة الأهرام العدد 37303 بتاريخ 25 يناير 1989م.